موقع التلقي من الفعل الترجمي
في ضوء التعريف اللغوي للترجمة

أ. جيلالي كاملين*

ملخص:

لمّا كانت الترجمة وثيقة الصلة بنظرية القراءة، من جهة أنّ المترجم هو قبل كلّ شيءٍ قارئٌ، وكانت أيضا ذاتَ وشائجَ بالتأويل، ذلك أنّ كلّ فعلٍ ترجمي يقوم من حيث المبدأ على مساحة من التأويل، فإنّ هذه الدراسة تقوم انطلاقا من هذا التوصيف، على افتراض أنْ يكون لفعل التلقّي لا محالة حضورٌ كثيفٌ على امتداد مسار الفعل الترجمي، و تسعى إلى استجلاء عناصر الفرضية من خلال استنطاق التعريفات اللغوية التي وضعتها أمّهاتُ المعاجم العربية لمادة "ترجم"، وتحليلها بما يقود إلى اقتفاء مقولة التلقّي في ثنايا التعريف اللغوي العربي للترجمة، إذْ إنّ تعريف أي فنّ من الفنون هو مدخلٌ رئيسٌ لفهم مكوّنات هذا الفنّ ومحدّداته الجوهرية، وقدْ اتّخذت الدّراسة من التعريفات اللغوية للترجمة علاماتٍ تهتدي بها من أجلِ الإفضاء إلى غايةٍ قوامُها أنّه لا يكادُ يخلو تعريف للترجمة من الإشارة إنْ تصريحاً أو تلميحاً إلى التلقّي بوصفه واحدا من المكوّنات العضوية للفعل الترجمي، و أنّ حدّ الترجمة – أي تعريفها – لا يستقيمُ بمعزلٍ عن فعل التلقّي، فالترجمة والتلقّي حدثان متوالجان وصنوان رديفان ما لأحدهما غُنْيَةٌ عن صاحبه.

الكلمات المفتاحية:

التعريف اللغوي للترجمة؛ الترجمة؛ التلقي؛ الترجمة عند العرب؛ موقع التلقي؛ الفعل الترجمي.

Reception position in the lexical definition of translation

abstract

Since translation is closely related to the theory of reading, the translator is in the first place a reader, and it is also related to the interpretation, for every act of translation is based on the interpretation. This paper starts from this description, to prove that receiving has inevitably a heavy presence along the translation process, and seeks to clarify the elements of the hypothesis through questioning and analyzing the lexical definitions, in a way that leads to trace the presence of the notion of “reception” amongst those definitions, to result in a statement that every definition mentions implicitly or explicitly the act of “reception” as one organic component of translation

process organic , and that the definition of translation does not stand in isolation from the act of reception, thus, translation and reception are two inseparable, interlaced and crossed acts.

Key words : lexical definition of translation; translation; reception; the position of reception; the act of translating ; the Arabic concept of translation.

" إنّما كانت الترجمةُ، لأنّ البشر يتكلمون لغاتٍ مختلفةً."[1]

مولج

إنّ المترجمَ وهو يترجمُ، إنّما هو في الواقع يقارب بين نظامينْ لغوييْن؛ أحدهما ثابتٌ وماثلٌ في ذهنه وهو الذي ينطلقُ منه، أماّ الثاني فمُحتمَلٌ ورجراجٌ، إذْ ما يزال بعدُ قابلا للتشكّلِ والتكييف وهو الذي يسعى إلى بلوغه، فالمُنْطلقُ معلومٌ لدى المترجم لأنّه يملكُهُ وهو تحتَ يدِه، لكنّ المستقرّ ما يزالُ غضّاً طريّا وهو الذي يتمثّلُهُ ويبلورُ معالمَهُ في ذهنه.

يبدأ المترجم أوّلاً باستقراء النص الأصلي وتقييم محتواه الفكري والجمالي والعاطفي ويتبيّنُ السّمات الأسلوبيةَ وينظر في التراكيب ويتأمّلُ الأشباهَ والنظائرَ، وقد لا يلبثُ أحيانا أنْ يبلُغ مُناهُ ويصلَ إلى مبتغاهُ، حين يتملّكه شعورٌ بأنّ ثمّة انسيابا في نقل الرسالة، وأنّ مجرّد قراءة متن النصّ الأصلي تستدعي النصّ المستهدفَ استدعاءً وتستحضره استحضارا، فليس على المترجم إذْ ذاك سوى أن يوازن ويراجع ويقارب، ثمّ ينظُرُ إن كان نسيَ شيئا من نص الانطلاق، فإذا العملُ الترجميٌ قد تمّ.

إنّ الترجمة مشدودةٌ إلى فعل التلقّي من طرفيْها؛ منْ مبدئها الذي هو القراءة، إذْ إنّ الترجمة تبدأ بالقراءة، والقراءة هي أولى خطواتها، وهي بذاك أولى مراحل التلقّي، إلى منتهاها الذي هو الكتابة وهي الصياغة النهائية للنص المترجم والتي يقوم بها المترجم بناءً على التلقي الأول واستشرافا لحالة التلقّي التي تتراءى له في أفق النص الناتج مع القارئ المستهدف، وهي المسافة المصطلح عليها في عُرف نظرية التلقّي بأفق انتظار القارئ.

ومن الناحية الإجرائية أيضا تنطوي الترجمة على فعليْن للتلقّي؛ الأول يقوم به المترجمُ نفسه من حيثُ هو قارئ للنص الأصلي، ومسكون في آنٍ معا بهاجس الكتابة، والثاني يقوم به قارئ النص الناتج عن الترجمة وكلاهما يخاطب نصّا و"النص آلةٌ كسولة تتطلّبُ من القارئ بذل جهد تعاضديّ جبار لكي يملأ فراغات ما لمْ يُقَلْ وما قيل"[2] في صيرورة تشبهُ متواليةً دلالية منتجة، ولأنّ النص من حيثُ هو بنية لسانية يمثّلُ متوالية من الوحدات التعبيرية الهاجعة، ينبغي على القارئ أنْ يستحثّها ويفعّلها.

والمترجم قارئ مثالي بالنظر إلى كاتب النص الأصلي، كما أنّ متلقي النص المترجم هو قارئ محتمل بل ومقصود بالنظر إلى المترجم، وإن يكُ ثمّةَ فـرقٌ فلعلّـه أنْ يكـون أنّ

المترجمَ لمْ يكنِ ابتداءً من القرّاء المحتملين لدى الكاتب الأصلي، بينما كان متلقي النص الناتج قارئا محتملا لدى المترجم ابتداءً، أي منذ شروعه في الترجمة، ومنْ ثمّ يقع التلقي في مسار الفعل الترجمي، والحالة هذه، في موضعيْن، ولا مُشاحّةَ أنّ التلقي الأوّل قد يُلقي بظلاله على التلقي الثاني، فيكون المتلقي الثاني تحت رحمة المترجم، وليس المترجم واحدا من أقدر القرّاء على فكّ رموز النص الأصلي فحسب، وإنما هو من أقدرهم على إعادة بناء المعنى و بعثه في منظومة أخرى من العلامات والقيم الجمالية، " والمترجم هنا قارئ أول و مؤلّفٌ ثانٍ." [3]

يضطلع المترجم بدور المتلقي الأول على أنّه في الآن عينه، ينقُلُ الرسالة إلى متلقٍّ آخر بعده هو القارئ في لغة المستقر، فهو مسكون بهاجسيْن: هاجس القراءة وهاجس الكتابة، من أجل ذلك تواترت العبارة الشهيرة عند كثير من منظري الترجمة من أنّ المترجم يخدم سيّديْن، بعد أنْ كان الفيلسوف الألماني *فرانز روسنزفايغ (1886-1929)* Franz Rosenzweig أول من صاغها واستعملها:

« traduire signifie servir deux maitres à la fois »

" فالمترجم في ترجمته يسعى في خدمة المؤلف والعمل واللغة الأجنبية، وهذا هو السيد الأوّل، كما يسعى في خدمة جمهور المتلقين في اللغة المنقول إليها، وهذا هو السيد الثاني، وهنا بالضبط يَكْمُنُ ما يُمْكِنُ أنْ نصطلحَ على تسميته مأساة المترجم." [4] – ترجمتنا -

لقد كان سؤال الأمانة والخيانة منذ البدء واحدا من الأسئلة المركزية في الترجمة، حتى قيل: « traduttore traditore » : المترجم خائنٌ أو الترجمة خيانة، غير أنّ الوقت قد حان في نظري لأنْ نتساءل عن مدى وجاهة اعتبار هذا القول الفلورنسي المأثور معيارا حاسما ونهائيا في الحكم على الترجمة.

وفي السياق نفسه، واستطرادا على التصوّر ذاته، فإنّ المترجمَ ينهضُ بدوريْن اثنيْن ووظيفتيْن في الفعل الترجمي؛ فهو قارئ أوّل ومتلقٍّ في اتجاه المؤلف والنص الأصلي، وهو مؤلّفٌ ثانٍ ومُرسلٌ في اتجاه القارئ المستهدف متلقّي النتاج الترجمي، وهما وظيفتان وإنْ بدَتا متمايزتيْن، من حيثُ إنّ كلاً منهما نشاط قائمٌ بذاته له أصوله وقواعده، غير أنهما متداخلتان ومتمازجتان يصعب الفصل الحاسم بين حدودهما أثناء الترجمة.

فالقراءة والكتابة حدثان متزامنان ومتماهيان معا في الفعل الترجمي، ولا يمكن تصوّر أنّ القراءة حدث يسبق الكتابة ولا الكتابة تلي القراءة بمعنى أنّها تتلوها وتأتي بعدها كحدث مستقل ومرحلة تالية منفصلة وإنما هما حدثان يدوران معا ويتوالجان في فلك الفعل الترجمي، والترجمة من حيث هي عملٌ تفسيري وتأويلي تقترب كثيرا من الهرمونيطيقا

الأدبية، إذْ تقوم أولا على القراءة والفهم ثمّ التأويل، لتنتهيَ إلى الكتابة، وما الكتابةُ بهاجس الترجمةِ سوى تجسيدٍ لمُخْرَجَات التأويل في شكل نصٍ جديد يتم بناؤه في اللغة المستهدفة.

ومن هنا قد تنبثق إشكاليات شتّى؛ فإذا كان القارئ النهائي غير قادر على الإفضاء إلى النص الأصلي إلا بوساطة المترجم فهل إنّ تلقّيَهُ يقوم بناءً على سلطة الترجمة، أي سلطة المترجم من حيث هو قارئ وكاتب، وهل ذلك يعني أن المترجم يمارس على نحوٍ من الأنحاء نوعا من الوصاية القرائية على المتلقي، حتى يبدو تلقّي النص المترجم كأنه قراءة القراءة، ثمّ إلى أيّ مدى يكون هذا التلقي معادلا ومكافئا لتلقيه في حال ما إذا افترضنا جدلاً أنه قادرٌ على التعامل مع النص الأصلي رأسا...؟

تلكم إشكاليات لا تحسم بمجرد توصيف فعل التلقي وتحليله وحده بمَعزِلٍ عن الأَسْيِقة السوسيوثقافية التي تُحيقُ به، بل هي معضلة الترجمة ومسألة متعلقة أساساً بفلسفة الترجمة وأصولها وبقضايا وتفريعات كثيرة ذات صلة بالفعل الترجمي.

التعريف اللغوي العربي للترجمة:

لا شك أن عددا غيرَ يسيرٍ من المنظّرين والممارسين في حقل الترجمة يُجمع على تعذّر وضع تعريف جامع مانع للترجمة، وإنّ غاية ما وُضع لأجل ذلك، إنما هو توصيف أو تحليل للفعل الترجمي على نحو ما، وليس تعريفا بالمفهوم المنهجي الدقيق، ولعلّ في ذلك إيماءً واضحاً إلى أن الترجمة فعلٌ ينطوي على درجة كبيرة من التشعّب والتعقيد.

ولا يختلف اثنان حول قناعة مفادها أنّه من العسير استجلاء محددات الترجمة في ظل التوصيفات الكثيرة والمتنوعة التي يطرحها المنظرون على اختلاف مشاربهم و تعدد الزوايا التي ينظرون منها إلى الترجمة، وإنّ نظرةً عجلى إلى مجموع النصوص التي أُنشئتْ حول تعريف الترجمة لَتَشي بأنّ الترجمة من حيث هي نظريةٌ وإجراءٌ و مادّةٌ تعانق كثيرا من الحقول المعرفية، وتنهلُ من ينابيعَ متنوعة؛ كالأدب واللسانيات وعلم الاجتماع والاتصال والفلسفة... وحتى العلوم التجريبية، فهي ميدان متعدد التخصصات (multidisciplinaire)، ومن ههنا باتت الترجمة عصيةً على الحَدِّ والتعريف.

لقد آثرت – تفاديا للإطناب – في اقتفاء معاني المادة التي أروم، أن أستغني ببعض المعاجم مماّ عدّهُ أربابُ فنِّ المعجمية حجّةً ومرجعاً في بابه، وشهدوا له بالإصابة والإحاطة.

ورد في اللسان أنّ:" التّرجُمان والتُرجمان-بفتح التاء وضمها-المفسر لِلّسان، وفي حديث هرقل: قال لترجمانه. والترجمان بالضم والفتح: هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى، والترجمان: المفسر، وقد ترجمه وترجم عنه"[5]

وقد ذكر صاحب "التاج" أنّ: "الترجمان المفسر للّسان وقد ترجمه وتـرجم عنـه إذا فسّر كلامه بلسان آخر، وقيل: نقله من لغة إلى أخرى."[6] وفي "محـيط" الفيروزآبـادي: "الترجمان: المفسر لِلِّسان، وقد ترجمه وعنه."[7]

وفي "المعجم الوسيط": "ترجم الكلام: بَيَّنه ووضحه، وتـرجم كـلام غيـره، وعنـه، نقله إلى لغة أخرى"[8] وشبيهٌ به ما جاء في "الصحاح"[9]: "يقال: تـرجم كلامـه إذا فسّـره بلسان آخر، والترجمة: النقل من لغة إلى أخرى." وفي "متن اللغة": "ترجم كلامه: بَيَّنه وأوضحه، وترجم الكتاب وترجم عنه: فسّر بلسان آخر والترجمان: الناقل الكلام مـن لغـة لأخرى والمفسر للسان."[10]

ومشهورٌ في السيَر أنّ ابن عباس – رضي الله عنهما – كانَ يُدعَى " ترجمان القـرآن" على سبيل الثناء والامتداح، وليس يشكُ أحدٌ أن هذه الصفة ليستْ تعنـي سـوى أنـه كـان يفسِّر القرآن للناس ويشرحه، و لا يذهبُ الوهمُ قطعاً أنه كان يترجم القرآن من العربيـة إلى لغة غيرها، و في الخَبَرِ عند البخاري:[11] حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَقَـالَ: إِنَّ وَفْـدَ عَبْدِ القَيْسِ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَنِ الوَفْدُ أَوْ مَنِ القَوْمُ» قَـالُوا: رَبِيعَـةُ .....الحديث.

وفي الحديث النبوي الشريف: "وأما العَيْلَةُ، فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحـدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه، ثم لَيَقِفَنّ أحدكم بين يدي الله، ليس بينه وبينه حجاب ولا تَرْجُمان يترجم له."[12]

وأنشد الشاعر العباسي عوف بن محلِّـم الخزاعي في حضرة عبـد الله بـن طـاهر بـن الحسين بعد أن ثقل سمعه:

إنّ الثمانين وبُلّغْتَها *** قدْ أحوَجَتْ سمعي إلى **تَرْجُمان**[13].

وقد ورد أيضا عند المتنبي في قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة:

ملاعبُ جِنّةٍ لو سار فيها *** سليمانٌ لسارَ **بتَرْجُمانِ**[14]

وإذا استقرينا ما تقدّم من إشارات في المفهوم اللغوي للترجمة يسـتبين أن الترجمـة تدور حول معنييْن اثنين في الغالب: الأول تفسير الكلام أي شرحه داخل اللسان الواحـد أو من لسان إلى آخر، والثاني هو نقل الكلام من لسان إلى آخر، والمترجم من ثـمّ " مفسّـرٌ" أو " ناقل"، على أنه في كل الأحوال " وسيط" ومعنى الوساطة هذا يتجلـى فـي الحـديث النبوي الشريف، " ليس بينه وبينه حجابٌ ولا ترجمان".

وإذا كان "التفسير" و "النقل" هما المعنييْن الأصليين اللذيْن تمدّنا بهما معاجم العربية، من جهة أن "التفسير" هو الدلالة النظرية العامة للترجمة، و "النقل" هو الدلالة العملية والإجرائية، فإنه لدى التوسع في استقصاء المفهوم فإنّ معاجم العربية قديمها وحديثها تدور، في الغالب الأعم، عند تعريفها للترجمة حول معانٍ أربعة:

1 -الترجمة تعني التفسير والتبيان والتوضيح، فترجَمَ الكلامَ، إذا فسّره وبيّنه ووضّحه.

2 -الترجمة هي نقل الكلام من لغة إلى أخرى، كأنْ ينقل المترجمُ خطابا من العربية إلى لغة سواها.

3 – وقد تعني الترجمةُ التحويلَ والتصييرَ، كأنْ يقال: لا عبرةَ بالإيمان حتى يُتَرجَمَ إلى عمل صالح، أي حتى يحوّلَ ويُصَيّرَ.

4 – وتعني الترجمة أيضا تدوينَ سيرة عَلَمٍ من الأعلام والتأريخَ لحياته، وقد نشأ من ذلك فنٌّ من الكتابة قائمٌ برأسه عُرفَ في تاريخ الآداب بفن السير والتراجم.

ولو أننا ذهبنا ننقّبُ في المعاجم العربية جميعها، قديمها وحديثها فإننا لا محالةَ واجدون تعريفاتٍ أخرى كثيرةً، غير أنّ فيما أوردناهُ غُنيَةً لنا عما سواه، ذلك أنه مهما يكنْ من تعريفٍ لمادة " ترجم" في العربية فإنه يؤول على نحو من الأنحاء إلى واحدٍ من هذه المعاني الأربعة التي أسلفنا القيل فيها.

وأرى قمينا بي أنْ أُشيرَ في ذيل هذا المفهوم اللغوي، إلى أنّ الفقهاء قد أجازوا ترجمة القرآن واحتجوا لذلك بجواز تفسيره، فكأنّما قاسوا الترجمة على التفسير، فإذا جاز تفسيره داخل اللسان الواحد لمن لا يفهمه، جاز من باب أولى ترجمته لمن لا يعرف العربية، وهم بتعليلهم ذاك قد جعلوا التفسير والترجمة صنويْن ورديفيْن.

موقع التلقي في التعريف اللغوي للترجمة

لعلّ الذي يعنينا من كلّ ما تقدّم وما كان على نحوه ودار في فلكه ممّا لم نوردْهُ تحاشياً للاستطراد والإطناب، ليس المعنى المعجمي لجذر مادة " ترجم" ولا حتى المدلول الاصطلاحي لمفهوم الترجمة بعامّة، بقدر ما نروم من خلال ذلك استلالَ معنى خبيءٍ وإيحاءٍ خفيٍّ يمتّ بصلة وثيقة إلى موضوع البحث القائم على ثنائية الترجمة والتلقّي.

إذ إنّهُ يكاد لا يخلو شرحٌ معجميٌّ للفعل "ترجم" في اللغة العربية أو في سواها من اللغات، كما لا يخلو تعريف اصطلاحي لمفهوم الترجمة من حيث هي فعلٌ وإنجازٌ لغوي، منْ مكوّنٍ جوهريّ ومحدِّدٍ مركزيٍّ يتمثّل في مفهوم " التلقّي"، فالترجمة بما هي نقلٌ تقوم على بناء الجسور بين الحضارات والإنجازات البشرية، وهي منْ ثمّ "تلقٍّ" للمعارف

والعلوم، والترجمة الأدبية بوجه خاصّ تهدف إلى التلقي بمضمونه الجمالي، وحيثما تُولِّ وجهك في الفعل الترجمي تجدْ نهاياتِه وأطرافَهُ القاصيةَ عند فعل " التلقّي".

فلوْ رجعنا على سبيل الاستدلال إلى ما تقدّم من حدودٍ لمادة "ترجم" في معاجم العربية، لوجدنا في اللسان والتاج والمحيط أنّ " الترجمان هو المفسِّر للسان"، فوجودُ المفسِّر – بكسر السين – وهو الترجمان يقتضي بالضرورة وجودَ المفسَّر له – بفتحها – وهو المتلقّي.

وفي المعجم الوسيط والصحاح وكذلك متن اللغة، ورد أنّ " ترجمَ الكلامَ، إذا بيّنهُ ووضّحهُ وفسّره"، وكلّ ذلك إنّما يقتضي متلقياً، يُبيّنُ ويُوَضّحُ ويُفَسّرُ له.

وقدْ تقدّم أيضا ما وردَ في الخبر منْ أنّ ابن عباس رضي الله عنه كان يُدعى ترجمان القرآن، وتلكَ صفةٌ لا تعني سوى أنّه كان يفسر القرآن للناس ويشرحه، وقريبٌ منه ما رواه أَبُو جَمْرَةَ في الحديث سالف الذكر حين قال: " كنتُ أترجم بين ابن عباس وبين الناس"، والنّاس هنا هم عموم المتلقّين، سواءٌ داخل اللغة الواحدة أم منْ لغةٍ إلى أخرى.

ومثلُه ما ورد في الحديث المتقدّم: " ثم لَيَقِفَنّ أحدكم بين يدي الله، ليس بينه وبينه حجاب ولا تَرْجُمان يترجم له"، أيْ أنّ العبدَ هو المتلقّي الذي يتلقّى من حضرة المولى العزيز كِفاحاً، ولا يحتاج إلى ترجمان يتلقّى عنه، وفيه إيماءٌ إلى أنّ وجود المترجم يقتضي بالضرورة وجود المتلقّي.

والشاعر العباسي عندما قال : قدْ أحوَجَتْ سمعي إلى تَرْجُمان، إنما عنى أنّه لمّا بلغ من الكِبَرِ عِتِيّا ضعُف سمعُه حتى احتاج معه إلى ترجمان، وإن كان الترجمان هنا لا يعني بالضرورة منْ ينقل الكلام من لغة إلى أخرى، وإنما مع ضعف السمع يغدو المرء غيرَ قادرٍ على تَبَيّنِ معاني الأصوات والكلمات فيكون منْ يُسمّعُه الكلامَ وينقلُه إلى سمْعِه واضحاً في حُكْمِ الترجمان لأنّه يُخرِجُ له الكلامَ من الغموض والخفاء إلى الوضوح والسّواء، فهو لا يتلقّى المعنى ابتداءً حتّى يكون المسمِّعُ له هو الترجمان الذي يتلقى عنه فيحصل له بذلك الفهم والاستجابة.

وفي بيت المتنبّي: "**...لو سار فيها، سليمان لَسار بترجمان**"، إشارةٌ أخرى إلى فعل التلقّي الذي يُلازم فعلَ الترجمة ملازمةَ الظلّ للشخوص، ذلك أنّ النبيّ سليمانَ عليه السلام نفسَه، وقدْ أوتي ملكا وعلما وعلّمه الله منطق الحيوان،﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾[15]، وهو الذي فَهِمَ تحذيرَ النملةِ لأخواتها منهُ ومنْ جنودِه ﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا**﴾[16]، ومع ذلك كلِّه لو أنّه سار في تلك المرابع، على حدّ تصوير المتنبي وتخييله لاحْتاج إلى ترجمان

يبيّنُ ويوضّح ويفسّر له، وقد كان المتنبي أشار قُبَيْلَ هذا المعنى إلى معنىً آخرَ طريفٍ ذي صلةٍ به في قوله:

ولكنّ الفتى العربيّ فيها *** غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ[17]

يُريدُ أنّ الفتى العربيّ، ويقصدُ نفسه، في هذه الملاعب، غريبُ الوجه واليد، أي لا يعرفهُ أحدٌ ولا يملكُ شيئا، وأما غريب اللسان فلأنه لا يفهم لغة أهل هذه البلاد ولا يفهمون لغته، فلا يكون التواصلُ والتلقي إلا من طريق الترجمة.

فالترجمة ترتبط ارتباطا عضويّا بالتلقّي، وما منْ فعلٍ ترجمي إلا وهو مسكون بهاجس التلقّي، حتى إنّ كثيرا من منظري الترجمة يحكم على جودة الترجمة بالنظر إلى قدرتها على "الانفهام" أي على نحوٍ ما الوصول إلى المتلقي، فالتلقّي ليس مجرّد شرط وركن في الترجمة، بل هو أحد أهم المكوّنات العضوية للفعل الترجمي.

يقعُ التلقّي إذاً في قلب الفعل الترجمي، ذلك أنّ الترجمة تقوم أوّل ما تقوم على التفسير والتأويل، فكلّ فعل ترجمي هو فعل تفسيري وتأويلي، وإذا نظرنا أيضا إلى الترجمة من جهة كونها قراءة، فإنّ ذلك أيضا يستدعي مقولة التلقي لأنّ كلّ قراءة هي تأويلٌ.بل ويمكن أن نذهبَ إلى أبعدَ منْ ذلك؛ إلى الزعم بأنّ الترجمة إنما هي تجسيد وتحقيق لفعل التلقّي على الأقلّ في مستويين: الأول أنّ المترجم هو في ذات الوقت قارئ على نحو ما، ومن ثمّ يَصْدُقُ في حقّه ما يصدقُ في حقِّ أي متلقٍ من آليات الاستجابة والتقبّل، والثاني أنّ الترجمة قادرة بشحنتها التأويلية على توجيه الاستجابة والتلقّي إزاء منتوجها.

والنصّ الناتج عن الترجمة هو في الحقيقة ناتجٌ عن التأويل، وهو منتهى عملية القراءة، فالقراءة تُنتجُ المعنى، وتصلُ إلى ذروتها وتبلغ منتهاها حينما تفضي إلى تأويل يتناسل منه النص المترجَم، وذلك منْ منطلق أنّ النص "آلة كسولة" machine paresseuse كما تصفه بعضُ نظريات التلقّي و"شرط القراءة وعلة وجودها أن تختلف عن النص الذي تقرأه، وأن تكشف فيه ما لا يكشفه بذاته أو لم ينكشف فيه من قبل، وأما القراءة التي تقول ما يريد المؤلف قوله، فلا مبرر لها أصلاً، لأن الأصل أولى منها، ويغني عنها." [18]

كما أنّه في كلّ عملية قراءة، يخضع القارئ إلى مجموعة من الخبرات والتراكمات المعرفية التي تتحكم في فعل القراءة وتوجّه إنتاجه للمعنى، وذلك سواء مع المترجم وهو المتلقّي الأول، أم مع "المستهلك" مستهلك النتاج الترجمي-بوصفه المتلقي الثاني في مسار هجرة النص، إذْ إنّ القارئ "لا يواجه النص معزولاً ووحيداً، بل يواجهه من خلال الأنظمة النصية المترسبة في لا وعيه ومن خلال ذكرياته القرائية."[19]

التعريف اللغوي الغربي للترجمة.

تذكرُ بعضُ مراجع الترجمة أنّ مصطلح traduction قد ظهر لأوّل مرّة في فرنسا في 1540، على يد الورّاق وعالم الإنسانيات و المترجم إيتيان دولي Etienne Dolet ويقدم قاموس Le Petit Robert تعريفا للفعل traduire على أنه منحدرٌ من جذور لاتينية traducere (1480) ويعني "faire passer" أي "مرّرَ" ويتضمّنُ أيضا معنى "نَقَلَ" وقد ورد في القاموس الشرح التالي:" بحيثُ إنّ المَلْفوظَ المُنْجَزَ في لغةٍ طبيعية ما، تمّ إنجازه وإنشاؤه في لغةٍ أخرى، مع مراعاة التكافؤ الدلالي والتعبيري بينَ الملفوظيْن." – ترجمتنا–

فهذا " التمرير" أو النقل يقتضي وجود طرفيْن على الأقل؛ الأوّل هو مُنتِجُ هذا "المنقول" والثاني ليستقبله ويتلقّاه، فالترجمة وفق ما ورد في القاموس هي "تمريرُ" الملفوظ المنجَز ابتداءً في لُغة المنشإ، إلى لغةٍ مستقبِلة بما يحقّق التكافؤ، وما يُفهَمُ بداهة من عبارة "اللغة المستقبِلة" أنّ ثمةَ متلقّيا متربّصا في هذه اللغة ليستقبل هذا الملفوظ في صورته التي تحوّل إليها بعد نقله.

وليس غريباً أن كلمة ‘translation’ في الإنجليزية تُحيلُ هي أيضا على معنى يوحي بالمفهوم ذاته إذ الجزء الأول من الكلمة ، وهو السابقة ‘trans’، يُستدلُّ به على معنى "الجهة الأخرى"، أو معنى "فوق"، وفي ارتباطها بكلمة translation إضافةٌ دلالية تشي بمعنى "النقل" على نحو ما نجده في كثير من الأفعال والأسماء المبدوءة بهذه السابقة مثل "transport" أو "transfere" ، ومن هنا كانت الترجمة شبيهةً بعملية النقل، نقل مادّة نصيّة من المؤلّف المُرسل إلى القارئ المتلقّي، ولعلّ هذا يسوقنا إلى الإشارة إلى جدلية لطالما كانت مجال سجالٍ بين المنظّرين و الممارسين للترجمة، حول أيّهما أجدى في الترجمة أَنَقْلُ القارئ إلى الكاتب الأصلي؟ أو بتعبير آخر الحفاظ على غرابة النص، أم نقل المؤلّف إلى القارئ؟ بمعنى توطين النص في اللغة المستهدفة، وتلك جدلية يتجلّى فيها موقع المترجم بين المؤلّف والمتلقي.

الخاتمة

لعلّه قد بات راسخا، بعد تحليل التعريفات اللغوية المختلفة للترجمة في بعض القواميس العربية، أنّه لا يكاد يخلو أحدُها من الإشارة تلميحا أو تصريحا إلى "الضفة الأخرى" للترجمة وهي التلقّي، وإنّ شرح مادّة "ترجم" في القواميس العربية يدور حول مفاهيم بأعيانها أهمها: الشرح والتفسير والنقل، وهذه الثلاثة جميعا إنّما تحيل رأسا إلى أنّ المتلقي هو المقصود في كلّ فعلٍ ترجمي.

إنّ فعل الترجمة انطلاقا من التعريف اللغوي، يقوم في جانب كبير منه على مقولة أنّ التلقي هو الغاية التي ينتهي إليه النص المترجَم، وأنّه فعل يدور في فلك واحد مع فعل التلقّي، ذلك أنّ التعريفاتِ جميعَها تومئُ إلى أنّه مكوّنٌ عضويٌّ في تحديد ماهية الترجمة، وأسٌّ متين في كينونتها، وهو أيضا المعيار الذي يُعرَفُ به جيّدُ الترجمة من رَدِيِّها، انطلاقا من أنّ الترجمة هي فهمٌ في بداياتها ثمّ إفهامٌ في نهاياتها، كما أنّ المترجم منذ الوهلة الأولى يستحضر القارئ المقصود بالنصّ، و استنادا إلى ذلك يُفاضلُ بين الخيارات المتاحة، و يتخذ موقفا لغويا واجتماعيا وأيديولوجيا وجماليا بما يتيح له إحكام المفاوضة مع النص الأصلي، وكلّ ذلك من أجل سلامة المعنى بين يديْ المتلقي الذي يربضُ متربّصا به في اللغة المستهدفة، فالترجمة والتلقّي صنوان رديفان.

الهوامش

1 - Steiner, George. After Babel: Aspects of Language and Translation. New York & London: Oxford University Press, 1975.p. 49-النص الأصلي "Translation exists because men speak different languages". **VOIR AUSSI: Steiner**, Après Babel, Une poétique du dire et de la traduction, Paris : Albin Michel, Traduit de l'anglais par Lucienne Lotringer et Pierre-Emmanuel Dauzat , 1998, P.58 **النص الأصلي** : « C'est parce que les hommes parlent des langues différentes que la traduction existe »

2 - أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي 1996، ص.28.

3 - حسن حنفي، من النقل إلى الإبداع، دار قباء، القاهرة 2000، ص.81.

4 - BERMAN, Antoine, l'epreuve de l'etranger, culture et traduction dans l'Allemagne romantique, Gallimard,1984, P.15 **النص الأصلي** : « Traduire, écrivait Franz Rosenzweig, c'est servir deux maîtres.» Telle est la métaphore ancillaire. Il s'agit de servir l'œuvre, l'auteur, la langue étrangère (premier maître), et de servir le public et la langue propre (second maître). Ici apparaît ce qu'on peut appeler le drame du traducteur. »

5 - ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1970، 426/2.

6- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت، 2/ 211.

2- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 8 ، 2005، 114/4.

3- مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، دار الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الرابعة، 2004،1/ 83.

4- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ، 1987، ج. 5.

5- الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1959، 391/1.

6 - البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت،2002 ، كتاب العلم / باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من وراءهم رقم 87.

12 - البخاري. كتاب الزكاة. باب الصدقة قبل الرد، 3/ 281.

13 - الثعالبي أبو منصور، فقه اللغة و أسرار العربية، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 2000، ص. 441.

14 - ديوان المتنبّي، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت 1983، ص. 541.

15 - سورة النمل، آية 16.

16 - نفسها، آية 19.

17 - ديوان المتنبي، ص 541.

18 - علي حرب، نقد النص ، المركز الثقافي العربي، بيروت ، الدار البيضاء ط 4، 2005، ص.20

19 - جان ستار وبسكي، نحو جمالية للتلقي، ترجمة: محمد العمري، دراسات سال، فاس عدد: 1992/6، ص.18

– قائمة المراجع و المصادر

– القرآن الكريم.

المراجع العربية:

1- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت،2002 .

2- الثعالبي أبو منصور، فقه اللغة و أسرار العربية، المكتبة العصرية، بيروت، ط2.

3- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ، 1987.

4- جان ستار وبسكي، نحو جمالية للتلقي، ترجمة: محمد العمري، دراسات سال، فاس عدد: 1992/6.

5- حسن حنفي، من النقل إلى الإبداع، دار قباء، القاهرة 2000.

6- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت.

7- الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1959.

8- علي حرب، نقد النص ، المركز الثقافي العربي، بيروت ، الدار البيضاء ط 4، 2005.

9- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8، 2005.

10- مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، دار الشروق الدولية، القاهرة ، الطبعة الرابعة، 2004.

11- المتنبّي، أحمد بن حسين الجعفي أبو الطيب، ديوان المتنبّي، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، 1983.

12- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

المراجع المترجمة:

1- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي 1996.

2- جان ستار وبسكي، نحو جمالية للتلقي، ترجمة: محمد العمري، دراسات سال، فاس عدد: 1992/6.

المراجع الأجنبية:

1- Steiner, George, After Babel: Aspects of Language and Translation. New York & London, Oxford University Press, 1975.

2- Berman, Antoine, l'epreuve de l'etranger, culture et traduction dans l'Allemagne romantique, Gallimard, paris, 1984.